سِلْسِلَةُ: إِتْحَافِ الحَاضِرِ والبَادِي بِتَفْرِيغِ أَشْرِطَةِ العَلَّامَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ هَادِي (٣٧)

تَفْرِيْغُ الكَلِمَةِ الافْتِتَاحِيَّةِ لِدَوْرَةِ الإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ -رَحِمَهُ اللهُ- الخَامِسَةِ الْمُقَامَةِ فِي دَوْلَةِ السِّنِغَالِ

لِفَضِيلَةِ الشَّيخِ العَلَّامَةِ

مُحَمَّدِ بْنِ هَادِي المَدْخَلِي -حفظه الله-

اعْتِنَاءُ

أَبِي قُصَيٍّ المَدَنِيِّ

-عَفَا اللهُ عَنْهُ وعَنْ والِدَيْهِ ومَشَايِخِه وَالْمُسْلِمِيْنَ أَجْمَعِيْنَ-

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلمة الافتتاحية لدورة الإمام مالك بن أنس -رحمه الله- الخامسة المقامة في دولة السّنِغَال

لفضيلة الشيخ العلّامة د. محمد بن هادي المدخلي -حفظه الله-(١)

مُقدِّم الكلمة: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يسرنا -معاشر الإخوة السلفيين في دولة السّنِغَال وفي أنحاء العالم- أن نستضيف شيخنا ووالدنا الشيخ محمد بن هادي -حفظه الله تعالى- ضمن فعاليات دورة الإمام مالك في نسختها الخامسة، اليوم يوم الأربعاء، الرابع من شهر ربيع الأول سنة ألف وأربعمئة واثنين وأربعين في كلمة استفتاحية أو افتتاحية توجيهية، فنترككم مع شيخنا ووالدنا، فتفضلوا مشكورين.

الشيخ: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسانٍ إلى يوم الدين، أمَّا بعد:

فحيَّاكم الله -معاشر الإخوة الكرام والأبناء-، حياكم الله جميعاً -معاشر الأحبة-، ويسرنا -أيها الإخوة الكرام- قيام مثل هذه الدورات العلمية الشرعية السلفية في أنحاء العالم، لأنَّ هذه الدورات الشرعية السلفية نفعها عظيم، وخيرها عميمٌ -ولله الحمد-.

وهذه الدورة التي تقام في مسجد الإمام مالك بن أنس، هذا المسجد الذي سُمِّيَ على هذا الإمام العظيم من أئمة السُّنَّة وأعلامها -رحمه الله تعالى وغفر له- تقام في دورتها الخامسة،

---

(١) ألقاها فضيلته -عبر الهاتف- ظهر الأربعاء ٤ ربيع الأول ١٤٤٢هـ بالمدينة النبوية.

ونسأل الله -جلَّ وعلا- أن يبارك فيها وفي القائمين عليها، وأن ينفع بها من حضرها واستمع إليها في كل مكان.

أقول: إنَّ هذه الدورة وأمثالها هي التي تُصحِّح للناس دينهم في جميع جوانبه؛ عقيدته، وأحكامه، والأخلاق منه، والآداب، والمعاملات، وكل ما يتعلق بأمور دينه، ودنياه، وآخرته، وهذا لا يكون -معاشر الأحبة- إلا بالعلم الشرعي الذي تَحرِصُ هذه الدورات على نشره بين الناس، وتصحيحه لعقائد الناس، ومفاهيم الناس، وتصحيحه لعبادات الناس، وتصحيحه لمعاملات الناس، ولكل شؤون حياتهم، وهذا إنما يكون بنشر العلم الشرعي الصحيح الذي يحصل بسببه تصحيح جميع ما ذكرنا.

ولا شك أنَّ العلم به حياة القلوب، وإذا حييت القلوب حياةً طيبة؛ عملت أعمالاً صالحةً طيبة، وإذا عملت الأعمال الصالحة الطيبة؛ سَعِدَت في دنياها وأُخراها.

والعمل لا يكون صالحاً طيباً إلا إذا اجتمع فيه شرطان:

- الشرط الأول: أن يكون هذا العمل خالصاً لله -جلَّ وعلا-.

- والشرط الثاني: أن يكون هذا العمل صواباً على سنة رسول الله ﷺ.

فإذا كان العمل خالصاً صواباً فهذا هو العمل الصالح الذي يقول الله فيه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

قال أبو علي الفضيل بن عياض -رحمه الله-: (أتدري ما قوله: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ قالوا: لا يا أبا علي، قال: أخلصه وأصوبه، فإنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صوابًا)[1].

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٨/ ١٧٦).

فهذا هو العمل الصالح الطيِّب الذي ينفع الله به صاحبه في الدنيا والآخرة، وهو الذي يقبله -سبحانه وتعالى- كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف:١١٠].

وكيف يُعْرَفُ أنه صالح أو غير صالح إلا بالعلم! فلذلك وجب التعلُّم لقول الله -جلَّ وعلا-: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف:١١٠].

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فيجد عنده الثواب الحسن والأجر الجزيل ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾.

فقوله: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ﴾ فيه شرط الإخلاص، لأنَّ العمل إذا لم يكن خالصاً لله لم يقبل.

قال -جلَّ وعلا-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة:٥].

وأما كونه صالحًا فلا يُعلم الصلاح من الفساد إلا بمعرفة أسباب الصلاح وأسباب الفساد، وهذا لا يكون إلا بالعلم، ولذلك قدَّمه الله على العمل في قوله -جلَّ وعلا-: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد:١٩].

والحاصل: أنَّ العلم هو المصحِّح للعمل فوجب أن يتقدَّم عليه؛ لأنَّ من يعمل على بينةٍ من الله وعلى نورٍ من الله وعلى بصيرةٍ من أمره؛ يكون الصلاح في جانبه أعظم.

وعليه؛ فهذه الدورات الشرعية السلفية التي تقومون بها أنتم وغيركم من إخوانكم في جميع البلدان الإسلامية وغير الإسلامية ينفع الله -سبحانه وتعالى- بها العدد الكثير في الوقت القصير.

وإنَّ من المناسب -معاشر الأحبة- أن يكون التنبيه في هذه الافتتاحية على مسألة فرض طلب العلم؛ فإنَّ العلم الذي سمعتم الكلام المتقدم عنه هو المصحِّح للأعمال والمصحِّح للنيات، فإذا وُفِّق العبد ورُزِقَ الإخلاص وسار في طلب العلم يتفقه في دينه؛ فإنَّ هذا من علامات إرادة الخير من الله -سبحانه وتعالى- بهذا العبد لقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه[1] الذي رواه معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما-: «**مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ**».

وذلك لأنَّ المسلم إذا تعلَّم عَبَدَ الله -سبحانه وتعالى- على بصيرة، فيعبده كما أوجب عليه أن يتقرب في العبادة إليه -سبحانه-، ويعبده كما أمره -سبحانه وتعالى-، وإذا عبده كما أمره -سبحانه وتعالى- فقد وُفِّق، وهذا هو المأمور به: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود:١١٢] فيعبد الله كما أراد الله لا كما يريد هو، فيكون حينئذٍ طلبه للعلم يُفَقِّهُهُ فيما تعبَّده الله -سبحانه وتعالى- به، فيعرف كيف يعبد ربه، فيتعلم من العقيدة، والعبادة، والمعاملات ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فيعبد الله على بصيرةٍ، وبفقهٍ، وعلمٍ، وفهمٍ، فهذا الشخص على هذا النحو يكون ممن أراد الله -سبحانه وتعالى- به خيرًا؛ إذ لم يتركه -جلَّ وعلا- في الجهل، وإنما أخرجه إلى العلم، وسلكه في طريق أهل العلم، فانطبق عليه أنَّ الله قد أراد به خيرًا.

وإذا كان كذلك -معاشر الأحبة- فينبغي لنا جميعًا ولكل مسلم يعقل عن ربه -جلَّ وعلا- خطابه: ألا يشغله شيء عن طلب الفقه في دين الله، فيتفقه دين الله ليعرف أمور دينه، ويعرف أمر آخرته، وإلا فسدت عليه جميع أموره، وإذا كان كذلك فقد هلك -نسأل الله العافية والسلامة-.

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» برقم (٧١)، ومسلم في «صحيحه» برقم (١٠٣٧).

وبهذا يتبين لنا -معاشر الأحبة- من الآيات التي تلوناها قبل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، وقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف:١١٠] إلى آخر الآية، وقوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]؛ يتبين لنا أهمية طلب العلم، وأنه فرضٌ على المسلم، وقد قال في هذا عليه الصلاة والسلام كما في حديث أنسٍ -رضي الله عنه- المشهور: (**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**)(١).

وليُعلم: أنَّ العلم كثير، والإحاطة به متعذرة، ولا يدركه أحد، ولكن على المرء أن يسعى إلى تحصيل ما يستطيعه من العلم النافع؛ لأنَّ العلم -معاشر الإخوة-:

- منه ما لا يسع المسلم جهله، المسلم العاقل البالغ لا يسعه جهله.
- ومنه ما هو فرضٌ على الكفاية.

فما لا يسع المسلم جهله هذا فرض عين، يجب على المسلم أن يتعلمه؛ لأنه يحتاج إليه في كل وقت، فعليه أن يتعلم ما تصح به عقيدته؛ معرفة الله -سبحانه وتعالى-، ومعرفة ما افترض على العباد من إخلاص العبادة له، وتصحيح التوحيد، وإخلاصه له -جلَّ وعلا-، ومعرفة عدو الله إبليس الذي يحاربه في هذا الجانب، ومعرفة نفسه الأمارة بالسوء، فيعصيها، ويأخذها بطاعة الله -جلَّ وعلا-، وعليه أن يعرف ما تصح به عبادته من طهارةٍ، وصلاةٍ، وعليه أن يعرف ما يتعلق بأركان الإسلام، ونحو ذلك مما لا يسع المسلم أن يجهله؛ فيعرف الاعتقاد الصحيح، ويعرف ما يتعلق بصلاته، ويعرف ما يتعلق بصيامه إذا كان من أهل الصيام، ويعرف ما يتعلق بالحج إذا وجب عليه الحج، فيتعلم كيف يحج، وهكذا بقية ما أوجب الله -سبحانه وتعالى- عليه من الفرائض العينية، لا يسعه أن يجهلها، بل يجب عليه أن يسعى في تعلمها؛ حتى

---

(١) رواه ابن ماجه في «سننه» برقم (٢٢٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم (١٨٣).

يعبد الله -سبحانه وتعالى- على بصيرة، ويصحِّح أعماله التي يعملها، والتي لا يقبلها الله -سبحانه وتعالى- إلا إذا كانت خالصةً وصواباً، فالصواب ما كان على سنة رسول الله ﷺ، وما عدا ذلك هذا من العلم المستحب الكفائي.

وهذه الدورات -معاشر الأحبة- يستفيد منها الناس في العِلْمين جميعاً، يستفيد منها الناس في القسمين جميعاً؛ العلم الضروري العيني الذي لا يسع المسلم جهله، ويستفيدون منها أيضاً في العلم الكفائي، ونعني به ما زاد فوق الواجب العيني الضروري، وهذا الذي أشار إليه ربنا -سبحانه وتعالى- ونوَّه بأهله في قوله: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

فالإنسان في مثل هذه الدورات يستفيد، ولذلك نحن نحثُّ إخواننا وأبناءنا وأحبائنا على إقامة مثل هذه الدورات، ونحثهم أيضاً على حضور هذه الدورات، والمشاركة فيها.

وليُعلم -حفظكم الله-:

أنَّ المسلم أبدًا لا ينفك عن طلب العلم، ما ينفك عن طلب العلم، إمَّا بكسبه له هو بأن يسعى إلى التعلم، أو بمجالسته لأهل العلم، وسماعه منهم، فإنَّ مجالسة أهل الخير خير، فحينئذٍ يرتفع عنه الجهل بما أوجب الله عليه، ويزداد بإذن الله -تبارك وتعالى- علماً فوق ما أوجب الله عليه من العلم الضروري العيني الذي لا يعذر أحدٌ بجهله، فيستفيد حينئذٍ في دينه، وفي دنياه، وفي آخرته، وفي أهله، وفي ولده، وفي جميع سعيه، كلما جالس العلماء وحضر حِلَق العلم استفاد وانتفع، فينبغي لنا جميعاً -معاشر الأحبة- أن نحرص على هذا.

ومن سعى في طلب العلم فليبشر؛ فإنه قد سلك طريقاً يُسَهِّل الله له به الطريق إلى الجنة كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم(١): (**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**) هذا حديث أبي هريرة (**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**) وهو عند أبي داود(٢) عن أبي الدرداء بأطول من هذا، حديثٌ طويلٌ عند أبي داود، فهنا رسول الله ﷺ يُبَشِّر من سلك طريق العلم بتسهيله له به الطريق إلى الجنة.

وهذا الفضل إنما هو -يا معاشر الأحبة- لمن حسنت نيته في طلب العلم، وحسن النية أن يخرج ليتعلم من العلم ما ينفي به عن نفسه الجهل بما أمره الله -جلَّ وعلا- به، وأوجبه عليه من حق عبادته حتى يعبد الله على علم، فيطلب حينئذٍ من العلم ما ينتفع به في دينه، ويطلب من العلم ما ينتفع به في أمر دنياه وأُخراه مما يُشكل عليه ويريد منه السلامة، يريد الخروج من الإشكال، لم يكن عنده فيه علم في هذا الأمر الذي يُشكل فيسعى ليتعلم، يسعى إلى العلماء ليطلب العلم، وهو في الحقيقة بذلك يطلب سلامة دينه.

فمن سلك هذا الطريق -يا معاشر الأحبة- فهذا الطالب الذي يسلك هذا الطريق داخلٌ في معنى هذا الفضل الذي ذكره رسول الله ﷺ لطلبة العلم (**سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**)، وأعانه -سبحانه وتعالى- عليه.

فما ينبغي للعاقل بعد أن يسمع هذا الفضل وهذا الأجر أن يتوانى في طلب العلم.

واعلموا -رحمني الله وإياكم-:

أنَّ من طلاب العلم من لهم عقول جَيِّدة، ومُؤيَّدة، ومُوفَّقة، ولهم آداب جميلة، وفهوم حسنة، وهؤلاء بتوفيق الله -سبحانه وتعالى- تجد منهم الحرص على السُّنَّة، يحبون أن يحيوا سنن

---

(١) في «صحيحه» برقم (٢٦٩٩).

(٢) في «سننه» برقم (٣٦٤١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤٠٧).

رسول الله ﷺ، وسنن أصحابه -رضي الله عنهم-، ويسعون في ذلك بكل ما يستطيعون، جعلني الله وإياكم منهم، ويسعون في إماتة البدع، ويسعون في جمع العلم والاستكثار منه، لماذا؟ ليحفظوا على أنفسهم وعلى المسلمين دينهم، حتى لا يضيع من العلم عليهم شيءٌ يستطيعون تحصيله، فهذه الحال هي حال من خرج يطلب العلم لله على النحو الذي ذكرنا، وهذه حال من تضع لهم الملائكة أجنحتها رضاً بما يصنعونه، وهو -أعني الطلاب للعلم على هذا النحو- هؤلاء جميعاً ممن هم في سبيل الله حتى يرجعوا إلى أهليهم، وهم ممن تستغفر لهم الملائكة والحيتان في البحر، وهم ممن سلك الطريق إلى الجنة، فنسأل الله -جلَّ وعلا- أن يجعلنا وإياكم من هذا الصنف من الناس -وهم قليل-، ولكن نسأل الله -جلَّ وعلا- أن يجعلنا وإياكم منهم، ويحشرنا وإياكم جميعًا في زمرة نبيه، وليس يضرهم قِلَّتُهم؛ لأنَّ كثيراً في هذه الأعصار الحديثة أصبحوا -ولا نُعَمِّم- نقول كثير أصبحوا لا يطلبون العلم، ولا يتعلمون إلا لما يريدون من الدنيا من أمر الوظائف والترقي فيها، وهذه بليةٌ عظيمة، ومصيبةٌ جسيمة.

والواجب على طالب العلم أن يكون مخلصاً لله في طلبه العلم، فمن كان مراده في طلبه للعلم الدنيا وأمورها؛ لا يلحقه ثوابٌ مما تقدم مما ذكرناه في فضل من طلب العلم -والله المستعان-، فما أشد فتنة طلب العلم، وما أعزَّ من طلبه لله، ما أشد الفتنة في طلب العلم، هذه فتنة خفية، معالجة النفس في هذا الباب باب الإخلاص أمرٌ عظيم، ففتنة طلب العلم في الظاهر أنه للعلم، وفي الباطن الله يعلم بحقيقتي وحقيقتك -أيها الطالب- إذا لم تكن النية خالصةً لله هذه والله الفتنة، لماذا؟ لأنَّ رسول الله ﷺ قال: **(مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ، لا يَتَعَلَّمُهُ إِلا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجنةِ)**[1] فنعوذ بالله من ذلك.

---

(١) رواه أبو داود في «سننه» برقم (٣٦٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤١٢)، وابن ماجه في «سننه» برقم (٢٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٨).

لا ينبغي لطالب العلم إلا أن يجاهد نفسه في هذا الباب، ويحاربها، ويعصيها؛ حتى تحقق الإخلاص لله -تعالى-، هذا هو الواجب علينا وعليكم جميعاً -معاشر الأحبة-، فلا نغفل عن هذا.

ولنعلم: أن هذا العلم يحتاج إلى صبر، ويحتاج إلى تواضع، فإذا لم تصبر يا طالب العلم في خروجك في تحصيل العلم، ولم تتواضع يا طالب العلم لمن تتعلم منه؛ فإنه يفوتك الخير.

فينبغي لطالب العلم ألا يأنف، ولا يستكبر أن يتعلم العلم من صغيرٍ أو كبير أو ممن هو دونه في المنزلة والمكانة، وأن يقبل الحق، ويشكر الله -جلَّ وعلا- على ما مَنَّ به عليه من أن يسَّر له من يرشده ويعلِّمه، بل يجب عليه أن يشكر من علَّمه ذلك، ولو كان أقل منه، فلا ينبغي له أن يتكبر، ولا ينبغي له أيضاً أن يستحي، فعليه ألا يكف عن السؤال عما يغيب عنه والذي ينفعه، وعليه أن يحرص على هذا -أعني السؤال عما يغيب مما ينتفع به-، وكثيرٌ من الطلبة ومن الناس يُمْنَع من التواضع -وأقصد بالمنع أنه يحرم من التواضع- في المسألة للعلماء عما جهله مما هو واجبٌ عليه، فإذا كان كذلك فاته من العلم الشيء الكثير، فالحياء والكِبْر يفوت بهما خيرٌ كثيرٌ على طالب العلم.

فعلى طالب العلم أن يتصف بالتواضع، وأن يتصف بعدم الحياء في الدِّين؛ فيسأل عما يحتاج إليه، لأنه كما نعلم جميعاً ما ذكره البخاري -رحمه الله- في صحيحه[1] عن مجاهد -رحمه الله- مُعلَّقًا: (**لاَ يَتَعَلَّمُ العِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلاَ مُسْتَكْبِرٌ**).

فإذا تواضع طالب العلم للعلماء؛ أحبوه، وأفادوه، وإذا تعاظم وتكبَّر عليهم وأظهر لهم أنه مستغنٍ عنهم أو فوقهم أو مثلهم؛ مقتوه، وكرهوه، ولم يفيدوه، أما من يُعلِّم الناس، فإذا رأى هذه الخصلة في طالب فإنه لا يُقْبِل عليه، فالله الله -يا معاشر الأحبة-.

---

(١) في كتاب: «العلم» في باب: «الحياء في العلم».

وبعد ذلك كله اعلموا -رحمني الله وإياكم-: أنَّ هذه الدورة كما ذكرت وأمثالها إنما هي لتلقي العلوم، وقد سمعتم فضل من خرج يتلقى العلم، وإذا كان كذلك فاعلموا أنَّ العلم هو الحفظ والفهم معاً، هذا هو أعلى درجات العلم التي ينتفع بها صاحبها، فإنَّ النبي ﷺ قد قسَّم العلم، فقال: (**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيْهٍ، ورُبَّ حامِلِ فَقهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْه**)(١).

فحامل الفقه الذي ليس بفقيه هو الذي يحمل العلوم، لكنه لا يفقه فيها شيئاً، عنده حافظة فقط.

وأما الصنف الثاني فهو الفقيه، والصنف الثالث هو الأفقه، وهو أعلى الجميع، فالفقيه والأفقه أخذناه من قوله -عليه الصلاة والسلام-: (**رُبَّ حامِلِ فَقهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْه**)، فقوله: (**أَفْقَهُ**) أفعل التفضيل، تقتضي أنه فقيه، لكن فوقه من هو أفقه منه، فهذان قسمان، والقسم الأول صرَّح به رسول الله ﷺ في قوله: (**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيْهٍ**)، (**ومَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خيْراً**) معاشر الأحبة (**يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ**).

واعلموا أنَّ العلم هو الحفظ والفقه، هذا أعلى درجات العلم، فمن عَلِمَ وفَهِمَ؛ فَقُهْ فيما تعلَّم وحَفِظَ؛ فهذا هو في أعلى الدرجات.

والعلم -معاشر الأحبة- هو الذي بين جنبيك، العلم هو المحفوظ، فالله الله -يا معشر الإخوان- في الاعتناء بالحفظ للمتون في هذه الدورات التي تدرسون فيها، وتجلسون إلى أهل العلم فيها:

إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًا ... فَجَمْعُكَ لِلْكُتْبِ لَا يَنْفَعُ(٢)

---

(١) رواه أبو داود في «سننه» برقم (٣٦٦٠)، والترمذي في «جامعه» برقم (٢٦٥٦)، وابن ماجه في «سننه» برقم (٢٣٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٤٠٤).

(٢) انظر: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (٢/ ٢٥١).

فالعلم هو الحفظ مع الفهم، يقول الشاعر في هذا الباب:

تَكْتَبُ العِلْمَ وتُلْقِي فِي سَفَطْ ثـمَّ لَا تَحْفَظُ لَا تُفْلِحُ قَطْ

إِنَّما عِلْمُكَ مَا تَحْفَظُه .....

هذا أول شرط، الثاني:

..... مَعَ فَهْمٍ وتَوَقٍّ من غَلَط(١)

فتكون حافظاً، ثم فاهماً لما حفظت، وأن تحرص على الاحتراز من الأغلاط في هذا المتن الذي تحفظه، فلا بد -يا معاشر الأحبة- من الاعتناء بالحفظ.

عِلْمِي مَعِي أَيْنَمَا يَمَّمْتُ أَحْمِلُهُ بَطْنِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدِوقِ

إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِي أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ(٢)

إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًا فَجَمْعُكَ لِلْكُتْبِ لَا يَنْفَعُ(٣)

فنحن نتعرض للأسفار ولا تكون الكتب معنا، ونتعرض للأسقام والمرض وضعف الصحة، فلا تكون عندنا قوة للجلوس ومراجعة الكتب والدواوين والأسفار دواوين العلم وأسفار العلم، فهذا إنما ينفعك فيه ما مَنَّ الله به عليك من حفظك للعلوم.

والله -سبحانه وتعالى- قد مدح هذه الأمة بحفظها للقرآن وذلك في قوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

فمدحهم بكون الآيات والعلم في صدورهم، فالله الله -يا معشر الإخوة- في الاعتناء بالحفظ.

---

(١) انظر: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (٢/ ٢٣٦).

(٢) انظر: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (٢/ ٢٥٠).

(٣) انظر: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (٢/ ٢٥١).

وإذا أردت أن تحفظ العلم فعليك أن تحفظ المتن الكتاب المعتمد في هذا الفن، فإذا حفظته وفهمته عليك بتدقيقه ومراجعته، حتى يصبح كأنما قد طُبِعَ في قلبك، وهذا كلما كان المرء فيه صغيراً في سِنِّه كان أكثر في الحفظ، ولا يمنع أن يحفظ وهو كبير؛ فإنَّ أصحاب النبي ﷺ قد تعلَّموا وكانوا كبارًا -رضي الله عنهم-، ولكن في الصغر أثبت.

ولنعلم: أنَّ المراجعة والمداومة عليها من أعظم الأسباب -إن لم تكن أعظمها- في تثبيت المحفوظات.

سُئِلَ البخاري -رحمه الله تعالى- عن الذي يُحَصَّل به العلم والحفظ؟

فقال -رحمه الله- مجيباً السائل: (شرخ الشباب وإدمان النظر)[1] يعني أن تطلب وأنت حديثٌ في السِّن تكون الحافظة قوية عندك، وأن تدمن النظر بالقراءة الدائمة، والمراجعة الدائمة يثبت بذلك الحفظ، ولو كان الحفظ في أول الأمر ضعيفاً لكن مع المراجعة يثبت ويستقر.

ويقول الناظم:

أَرَانِي أُنَسَّى مَا تَعَلَّمْتُ فِي الْكِبَرْ وَلَسْتُ بِنَاسٍ مَا تَعَلَّمْتُ فِي الصِّغَرْ
وَلَوْ فُلِقَ الْقَلْبُ الْمُعَلَّمُ فِي الصِّبَا لَأُلْفِيَ فِيهِ الْعِلْمُ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرْ[2]

فإذا كان في صغره وفي أول شبابه كان هذا أشد في الحفظ، وإذا تقدم به السن فالمراجعة -بإذن الله- تعينه وتُثَبِّت ما حفظ.

---

(١) جاء في: «جامع بيان العلم وفضله -تحقيق أبو يعقوب المصري» (٣/ ٢٥٩): (وَسُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ: مَا الْبَلَاذِرُ؟ قَالَ: إِدَامَةُ النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ)، وجاء في «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٠٦): (وَقَالَ -محمد بن أبي حاتم الورّاق-: بَلَغَنِي أَنَّ أَبَا عَبْدِ الله شربَ دوَاءَ الحِفْظِ يُقَالُ لَهُ: بَلاَذِر، فَقُلْتُ لَهُ يَوْماً خلوَةً: هَلْ مِنْ دوَاءٍ يشربُهُ الرَّجُلُ، فينتفعُ بِهِ لِلْحفظِ؟ قَالَ: لاَ أَعْلَمُ، ثُمَّ أَقبلَ عليَّ، وَقَالَ: لاَ أَعْلَمُ شَيْئاً أَنْفَعَ لِلْحفظِ مِنْ نَهْمَةِ الرَّجُلِ، وَمُدَاوِمَةِ النَّظَرِ)، وانظر: (مقدمة فتح الباري) (ص٤٨٧).

(٢) انظر: «جامع بيان العلم وفضله -تحقيق أبو يعقوب المصري» (١/ ٣٧٧).

فأوصيكم -معاشر الأحبة- أن تحرصوا على الحفظ، وأن تحفظوا المعتمدات في الفنون الكتب المعتبرة في الفنون، في الاعتقاد، في أصول التفسير، في الحديث، في أصول الحديث، في اللغة العربية، في النحو والصرف، في كذلك أصول الحديث الذي هو مصطلح الحديث، وغيرها من العلوم الشرعية، وعلوم الآلة المعينة على فهمها، لا تحفظوا إلا الكتاب المعتبر المعتمد الذي يراجعه الناس ويُقْرِؤه الناس، ويجلس الناس لتفهيمه، وينشرونه بين طلبة العلم، هذا هو المعتبر المعتمد، وإياكم والغرائب.

ثم أختم بالآتي: وهو أن لا تجلسوا إلا إلى من يفيدكم في دينكم ودنياكم -المتأهل-، فلا ينبغي لطالب العلم أن يجالس إلا من يعود عليه نفعه ممن يكتسب منه فهماً وعلماً وأدبًا، وإن لم يكن كذلك فابتعد عن مجالسته، واحذره على دينك، كما قال أهل العلم: (من لم يفدك في دينك ودنياك فلا تجالسه) ماذا تستفيد منه؟

فإذاً لا بد من الأخذ للعلم على المفيد:

وَمَا حَوَى الغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَه ... شَخصٌ، فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍ أَحْسَنَه

بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ ... تَأْخُذُهُ عَلى مُفِيْدٍ نَاصِحِ(١)

المفيد هو الذي يبتدأك بالفائدة ولو لم تسأل عنها، وعنده علم تستفيد منه، والناصح هو المشفق الذي ينصح لك، ويخلص لك في النصيحة إذا رأى بك حاجة إليها وإن لم تسأله، فأوصيكم -معاشر الأحبة ونفسي بهذا.

وأسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يعينكم في دورتكم العلمية هذه، وأن يوفقكم، وأن يزيدكم من فضله، وأن يسلك بنا وبكم سبيل مرضاته، وأن يعصمنا وإياكم من كل شر، إنه جوادٌ كريم، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى بركة الله تبتدئون

---

(١) انظر: «ألفية السند» (ص١٦٦) لمحمد مرتضى الزَّبيدي.

دورتكم هذه، سائلاً الله أن ينفعكم بما تسمعونه من المشايخ فيها، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

مُقدِّم الكلمة: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، بارك الله فيكم يا شيخنا، ونفعنا بما سمعنا، ما شاء الله، وجعله الله في ميزان حسناتكم، أحسن الله إليكم.

الشيخ: وإياكم جميعاً.

مُقدِّم الكلمة: إذًا موعدنا الغد بإذن الله -تبارك وتعالى-.

الشيخ: بإذن الله -تبارك وتعالى-، حياكم الله.

مُقدِّم الكلمة: السلام عليكم.

الشيخ: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.(١)

اعْتِنَاءُ

أَبِي قُصَيٍّ المَدَنِيِّ

-عَفَا اللهُ عَنْهُ وعَنْ والِدَيْهِ ومَشَايِخِه وَالْمُسْلِمِيْنَ أَجْمَعِيْنَ-

فِي العِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَبيعٍ الأَوَّل عَامَ اثْنَيْنِ وأَرْبَعِينَ وأَرْبَعِمِئةٍ وأَلْفٍ مِنَ الهِجْرَةِ

tafrigh-1438@hotmail.com

(١) إلى هنا انتهت الكلمة الافتتاحية، فإن أصبت في عملي فمن الله وحده، وما حصل من سهوٍ، أو غفلةٍ، أو خطأٍ فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله العظيم.